حفريات الموروث الشعبي
في القصة الصحراوية الجزائرية
مقاربة في "حائط رحمونة" [1] للقاص عبدالله كروم [2]

الدكتور: الصديق حاج أحمد
أكاديمي وباحث أنثربولوجي

الملخص:
يشكّل انخراط الموروث الشعبي في الإطار العام للبنية السردية، بكل ما يحمل من حمولة تاريخية، فضلا عمّا يكتنزه ذلك المروي الشعبي، من تجارب يومية للإنسان التواتي المبكّر، وكذا حكاياته الأسطورية والرمزية، والتي اتخذها تفسيرا لبعض الظواهر الكونية، كل ذلك وعجبنه في المتن السردي، يشكّل مادة غنية للراوي، يستلهم منه ذاته، ويتشارك به مع الآخرين.
فصرامة المؤرخ وانضباطه، ومسطرته التوثيقية الشّاكة والمشككة في كل شيء – وهو معذور في ذلك – كل ذلك يجعل المؤرخ لا يحفل كثيرا بالثقافة الشعبية في تدويناته للتاريخ، نظرا لاعتماد الثقافة الشعبية في أغلبها على الشفوي، والمروي الأسطوري، والخرافي، ليأتي بعده الأديب وبما أُتيّ من خيال، فيستلهم من تلك الثقافات الشعبية، ما يؤثث به نصوصه الإبداعية، ومن ثمة تظهر أهمية الأدب، ومدى احتفائه بالموروث الشعبي.
وعلى قلّة المتن القصصي السردي الصحراوي الجزائري؛ بل وندرته وشحه، بدأت بعض الأقلام الشّابة المبدعة، تخوض خمار التجريب في هذا الإطار، حيث تعتبر المجموعة القصصية " حائط رحمونة" للقاص عبدالله كروم، أول نص قصصي، يؤسس للكتابة السردية القصصية بولاية أدرار، كما يحاول هذا النص، ملامسة التجريب، والتاثيث للنص السردي بالموروث الشعبي، ومن هذه الكوّة، تروم هذه

المداخلة المتواضعة، مقاربة الموروث الشعبي، وتفكيك البُنى السردية للمجموعة، قصد استخراج مكامن الثقافة الشعبية للمجتمع التواتي، والتي حاول القاص عجنها في متن سرده القصصي.

Abstract:

The engagement of popular tradition in the general framework of the structure of the narrative – with all its historical loads, the richness of the narrated popular with regard to the early Tuati man's daily experience and his mythical and symbolic tales (which he adopted as explanation for some universal phenomena) – constitutes a rich material for the narrator from which his self is inspired, and which he shares with others.

The historian's rigidity and discipline, and his skepticism and questioning of everything – and he is all excused for that – make him uninterested in popular culture when recording history. This is so because popular culture relies mostly on oral tradition, and the mythical and legendary narrated. Then comes the writer, with all his imagination, to get inspired from those popular cultures to build his creative texts. This shows the importance of literature and its celebration of the popular tradition.

Despite the scarcity – if not the rarity – of Algerian Saharan fictitious narratives, some young creative writers have engaged in this field. For instance, Abdallah Kerroum's collection of tales ***Rahmuna's Wall*** is considered as the first fictitious text which established narrative fiction writing in the province of Adrar. This text tries to touch experimentation and build the narrative text through popular tradition.

This modest paper is an attempt to approach popular tradition, and decorticate the narrative structure of the collection, in order to extract deposits of popular culture of the Tuati community that the storyteller tried to portray in his narrative fiction.

الموروث الشعبي(النشأة والتأصيل والاشتقاق والترجمة):

لم يوظيف مصطلح الموروث الشعبي، في الدراسات العربية، كمصطلح مركّب بأبعاد قصدية، إلا بعد الفتوحات التي شهدتها الدراسات الانثربولوجية الغربية في بريطانيا، خلال القرن التاسع عشر الميلادي، عن طريق(سيرجون وليام تومز)، حيث أصبح يسمى(folk-lore)، ومع ظهور هذه الكشوفات والفتوحات البحثية، تلاحقت في الدراسات العربية، عديد الاعمال المهتمة بالثقافة الشعبية والموروث الحضاري، ككتاب (أشكال التعبير في الأدب الشعبي) لنبيلة إبراهيم، و (دفاع عن الفلكلور) لعبد الحميد يونس، و (المأثورات الشعبية) لصفوت كمال.

أما جزائريا، فإن الدراسات التي تُعنى بهذا الجانب، فقد استفاقت مع فتح معهد الثقافة الشعبية بجامعة تلمسان من طرف الأستاذ عبد الحميد حاجيات، مع جهود الأستاذة روزلين ليلى قريش بجامعة الجزائر، وكتابها (القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي) [3]، وكذا جهود الأستاذ عبد الحميد بورايو، عبر كتابه (الأدب الشعبي الجزائري) [4]، فضلا عن فتحه لمخبر الثقافة الشعبية بجامعة الجزائر، دون أن نعدم جهود بعض الباحثين الآخرين.

عتبة العنوان (حائط رحمونة) ودلالته الرمزية والإيحائية كعكاز للذاكرة واستدعاء للموروث:

يحيلنا عنوان المجموعة القصصية(حائط رحمونة)، كما هو أحد القصص السبع المشكّلة للمجموعة، إلى جملة من الاستدعاءات النائمة بالذاكرة الشعبية للجماعة البشرية للقصر، فهو الحائط الرمز، والحائط الملهى والمقهى [5]، والحائط الأسطورة، والحائط المبكى، والحائط الذاكرة، الذي نحتت الأيام أحداثها تحته وبجانبه، كما أننا

نجد القاص يرسّخ هذا الاستدعاء ويستدعيه في التبئير كعتبة من عتبات المجموعة، أو كنص مواز، حيث يقول:" قبل أن أرسخ خطوة الأقدام الأولى، اتكأت على الحائط سندا وظهيرا، وفي انطلاقة خطوة الحرف الأولى، استندت إلى الحائط، استلهاما ورؤية..."[6].

الحضور الآفت للفقّارة [7] كرمز تاريخي مقدّس للجماعة القصورية:

تبدو الفقّارة في المجموعة القصصية، كما لو أنها مقدّس للذات وللجماعة المستوطنة للقصر، فهي دائمة الحضور، كما تبدو مرثية من مراثي المجموعة القصصية، فهي الماضي الزّاهر للقصر، فبفضلها استقرّت الجماعة البشرية بالقصر، فهي عصب الحركة، وشريان الحياة بالقصر، لذلك لا نستغرب كل هذا البكاء على فقدها واختفائها، فمنذ العتبة الإهدائية للمجموعة، تلاحقنا بكائيات ومراثي القاص على الفقّارة، حيث يذكر في الإهداء:" إلى الذي بكته السعفة اليابسة في واحة النخل، و قطرة الماء الغائرة في الفقّارات، وهما ابناه من العرق.."[8]، كما تحضر الفقّارة كذلك وبشكل ملفت في القصة الأولى من المجموعة، والموسومة بـ (ماء من دم)[9]، فهو يؤكد على أن استمرار حياة الجماعة القصورية مرهون بسرّها، كما يمنحنا القاص تعريفا للفقّارة، حيث يقول:"ماء الفقّارات، ينساب تحت الأرض في أنفاق مستقيمة، تترابط بين الآبار، وتتدافع فيها المياه جارية، ثم تتدفق على سطح الأرض، في سواق، ينسج خريرها لحن الحياة، لتتوزع المياه على ملاكيها في منابات تحكمها حسابات وأوزان.."[10].

حضور وصفات الطب الشعبي بالمجموعة:

يعتبر الطب الشعبي، أحد العناصر المهمة، التي تكوّن الثقافة الشعبية للجماعة، فهو يعبّر عن تجارب الإنسان، ومدى تهربه وخوفه من المرض، وتشبثه بالحياة، ففي قصة ماء من دم، يحيلنا النص على وصفة طبية شعبية هامة، بطلها الطبيب، كما يكشف لنا هذا مدى تعلق المخيال الشعبي للجماعة القصورية بالجانب الجنسي ومسألة خلافة الأولاد للسباخ وماء الفقّاراتن حيث يذكر القاص:" كان الترياق

حاذقا في إعداد العرسان الجدد لليلة الدخلة، ويشرح بحديث مطول الطقوس المتبوعة لافتضاض غشاء البكرة، ويشرح لأصحاب الاستشارات العقاقير المناسبة لتفجير الكوامن من ماء الحياة.."[11].

حضور الأدعية والتوسلات الشعبية:

تذخر الذاكرة الشعبية التواتية، على كم هائل من الأدعية والتوسلات الشعبية، والتي يستدعيها المستغيث في الشعور واللاشعور، نظرا لكثرة تداوليتها وسماعها اليومي، فالطابع الصوفي للمنطقة، يجعل منها أكثر تمسكا بالأدعية والتوسلات الشعبية، ومن ذلك ما ذكره القاص في قصة ماء من دم، حيث قال:" يا حنان يا منان*يا من لا يرقد ولا ينام*أعنا يا معين*يا واسع العطاء*اليوم فجّر العين"[12].

مزمار العتبة والفرجة في القصر:

تحيلنا قصة مزمار العتبة[13]، بلا تردد، إلى تلك الفرجة الشعبية الغنائية، الذي يحدثها مزمار العتبة، أو كما يسمى محليا بـ (الزّمار)، فكما للقصر يومياته المثخنة بالهموم، والأحزان، والأتعاب، له يومياته الممتلئة بالبهجة والأفراح، فهاو الزّمار يحدث الفرجة في أجواء القصر أمام عتبة القصبة العتيقة، وتخترق ألحانه الشجية، مسامع أهل القرية، الفلاح في بستانه، والمرأة قرب قدرها، والأطفال أثناء لعبهم، بل حتى جماد القصر، تحرّك لسماع تلك الأهازيج، والرقصات الشعبية، ولا يتوانى القاص في وصف آلة المزمار، حيث يقول:"مزمار مثقّب من القصب، ملبوس بجلد أحمر، تتدلى في آخره، ملمة من خيوط، وعقيق، وأزرار، ولمع"[14]، كما لا يتردد القاص في إعطائنا فكرة عن بطل المزمار، المدعو البوداوي الزمّار، حيث يقول عنه:"رأس معمم بوجه دائري أسود، ثم أياد في جبة بيضاء كالثلج، ثم أرجل بسراويل عربية عريضة"[15]، فخلال عزف تلك الألحان من ذلك المزمار:(بسم الله أمسلمين لرجال العتبة، بسم الله أمسلمين لرجال العتبة)[16]، يغدو القصر هائما، ويتخلى كل متمسّك بمستمسكه، فتتخلى المرأة عن قدرها، ويتخلى الزارع عن

حرثه، ويتحجر الماء في المجاري، وتفرّط العجوز في وردها، وحتى الشحارير والبلابل عجمتْ، وخنق جمال الروعة صوتها [17].

أسطورة (تينيسَم) و (الصرَنْدي) في المخيال الشعبي التواتي:

للأسطورة والرمز الميثولوجي، في مخيال الذاكرة الشعبية التواتية، مكانا كبيرا، وقد أسْطرت الجماعة التواتية العديد من الأساطير، ذات الدلالة الغرائبية والعجائبية، الموحية للخوف والغلبة والسلطان، ومن تلك الأساطير، أسطورة الغول، وأسطورة أما السابعة، وأسطورة تينيسم، هذه الأخيرة، والتي تعبر عن امرأة مخيفة، عيناها جاحظتان برّاقتان، شعرها موّتد، أظافرها حادة مرعبة، وقد اتكأ القاص على هذا المكوّن الأسطوري لتينيسم، و وظّفه في قصة مزمار العتبة، ليروي لنا مروية أهالي القصر، والتي تحتفظ بها ذاكرتهم الشعبية حول علاقة الزمّار البوداوي بتينيسم، فيقول عن وصفها:" أرملة بكت زوجها، حتى طالت أشفار عيونها أمتارا، وامتدّ شعرها إلى التراب، ونمت أظافرها كطول وحد السيف، وبلغ الخنق منها مداه، حتى أنها أصبحت مسمومة، تغرز أظفارها في ضحاياها"[18]، كما عمد القاص، إلى المروي من شفوية الذاكرة حول مقولة:" أهي جات تينيسم، حلو ليا ندخل"[19]، وربط المروي بما ربطته الذاكرة الشعبية الشفوية لأهل القصر، من علاقة الزمّار البوداوي بتينيسم، وأنه وجد باب القصبة الخشبي مغلوقا، فزمّر تلك المروية السابقة" أهي جات تينيسم..."، ليفرج له سكان القصبة فرجة من الباب، فيدخل منها مسرعا، وتغلق الباب دونه، لتجد تينيسم الباب أمامها مغلقا، فتغرز ظفرا من أظفارها فيه، لتتابع الذاكرة المروية، من قولهم أن ذلك الظفر، كان يستعمله السكان، في الختان، وحلاقة شعر الرؤوس واللّحى.

كما ترتسم لنا أسطورة ذلك الطائر المسمى(الصرندي)، ونعته بطير الجنة، وما نسجه الخيال والذاكرة حوله، فنجد القاص يلتفت لهذا، فيقول:"هذا طائر من طيور الجنة، حرام أكله"، ويستشهد بما تحفظه الذاكرة الشعبية فيقول:"الصرندي بوعلامة، من كالوا جهنم"[20].

ثقافة التسليم للأولياء والصالحين:

لا يكاد يخلو قصر من القصور التواتية، من ضريح أو قبة ولي، مما جعل الذاكرة الجمعية للمجتمع التواتي، تجعل ذلك من قبيل المقدّس، فأقامت للأولياء والصالحين مناسبات وزيارات و وعدات سنوية، فنجد القاص، يستحضر هذا المقدّس، ويبرزه في قصة "حائط رحمونة"، وذلك عندما يريد أن يرشد ذلك الغريب لقصره، وكأن ولي القصر وصالحه، هو علامة من علامات معرفته، فيقول:" نحن طوعا أو كرها لولي صالح [21]، جذب إليه العرب والعجم، تلوح لك قبته المجصصة من بعيد، صامدة منذ خمسة قرون، لم تكترث بالتبديع، والتفسيق، والتكفير" [22].

المرويات المسليّة والأغاني المنوّمة:

ابتدعت المخيلة الجمعية للمجتمع التواتي، العديد من الأحاجي والمسليّات، والتي تعتبر بمثابة حبوب منوّمة للأطفال، ومنها ما تستعمله الجدات والأمهات، في مناغاة الطفل، وتقريب النوم إليه قبل نومه، وقد تصيّد القاص من ذلك، ما اشتهر في الذاكرة التواتية النسوية، حيث يقول:"

الله الله الله

ياسيدي بوتدارة [23]

من جاك عندالله

وأين الرجال الصبارة

جيت أمهوّد [24] للواد

ألقيت [25] الزعفة ما أبقات

أدّاها [26] بوريشات [27]

ذهنية البرّاح وطقوس الجماعة التواتية:

لكل مجتمع أعراف وتقاليد تضبطه وتسيّره، بيد أن الجماعة التواتية، سنت لتسيرها، ما يسمى بنظام الجماعة(الجْماعة)، وهي الهيئة العليا لتسير شؤون

القصر، يقودها مسئول، وتكون الجماعة ذات تمثيل قبلي، على أن معيار الاختيار في التمثيل يكون في العادة، بحسب كثرة البساتين وماء الفقّارات، وللجماعة برّاح، هو بمثابة الناطق الرسمي باسم الجماعة، يطوف بأرجاء القصر معلنا عن قرارات الجماعة ومسئولها، فقد وظف القاص وأنّث قصة حائط رحمونة، بهذا المكوّن الجمعي للذاكرة الشعبية، وربطه بالحائط التاريخ والذاكرة، فيقول:"هذا الجدار متكأ البرّاح ولد أمبارك بصوته الجهوري....."[28].

الشعر الشعبي وحضوره في الذاكرة:

يمثل حفظ الشعر الشعبي، وانتقاله بين الأجيال من بين المرجعيات التي تؤسس عليها الجماعة التواتية تاريخها، ومن بين الشعراء الذين حفروا اسمهم في مخيال الذاكرة الجمعية للمجتمع التواتي، نجد الشاعرة البوداوية، (نانا عيشة)، فعمد القاص إلى توظيف مقتطفا من شعرها، يتردد كثيرا في أيام المناسبات، كماسبة رقصة الشمس(المولد)، حيث يقول على لسانها:"

نشكر رسول الله وعليه أنجيب أكلامي*ونورّد لو معناه يا ربي تقبل نضامي [29]

التويزة كموروث للتكافل الشعبي:

تعتبر التويزة، كأحد العلامات الكبرى المشكلة لظاهرة التكافل الاجتماعي بتوات، وقد توارثت الأجيال هذا التقليد وقدّسته، فنجده حاضرا في الأعمال الكبرى والصعبة، التي تواجه يوميات القصر، كسقوط الفقارات، أو في حملة الحرث والحصاد، وما يصاحب ذلك من أغاني التويزة، والتي تكون حماسية، ومفعمة بالتوسل والرجاء لدفع المصيبة، عن الفرد أو المجتمع، فيذكر القاص أغنية الشاعرة (نانا عيشة)، والتي يكثر ترددها في التويزة، فيقول على لسانها:"

من ذا اللي غاثة لو جات للي حصلان*فك وحلتي يا حنان يا منان [30]

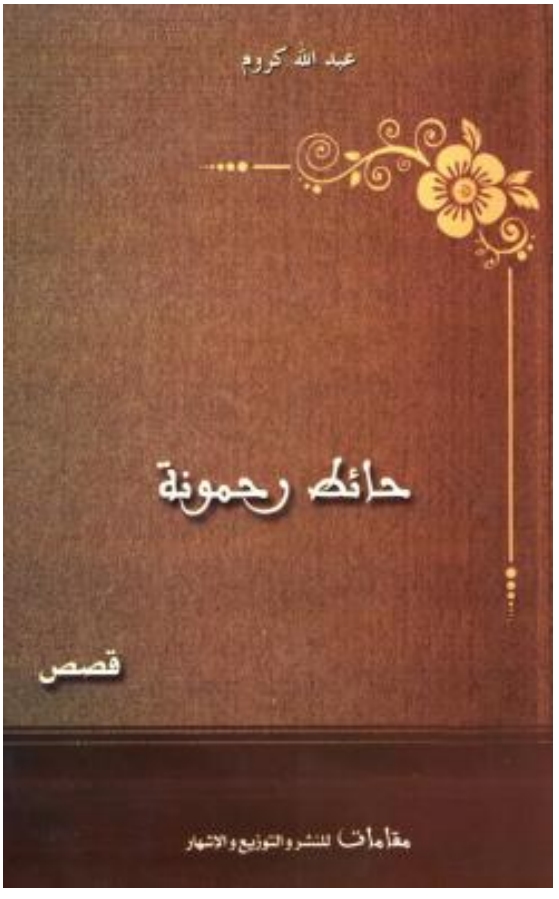

هوامش البحث:

[1] – صدرت المجموعة القصصية عن دار مقامات للنشر والتوزيع والإشهار – ط1 – 2011 – الجزائر.

[2] – عبد الله كروم، أكاديمي وكاتب، من أحفاد الشيخ المغيلي، نشر كتاب حول أدب الرحلة بتوات، من الوجوه الثقافية البارزة بأدرار.

[3] – الكتاب طبع بعناية ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر.

[4] – الكتاب نشرته دار القصبة في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية – 2007.

[5] – حائط رحمونة – ص24.

[6] – حائط رحمونة – ص15.

[7] – آبار محفورة تحت الأرض بطريقة عجيبة، تدل على عبقرية الإنسان التواتي القديم.

[8] – حائط رحمونة – ص07.

[9] – المصدر نفسه – ص17.

[10] – المصدر نفسه – ص17.

[11] – المصدر نفسه – ص19.

[12] – المصدر نفسه – ص22.

[13] – المصدر نفسه – ص27.

[14] – المصدر نفسه – ص29.

[15] – المصدر نفسه – ص30.

[16] – المصدر نفسه – ص31.

[17] – المصدر نفسه – ص28.

[18] – المصدر نفسه – ص32.

[19] – المصدر نفسه – ص32.

[20] – المصدر نفسه – ص44.

[21] – الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي.

[22] – حائط رحمونة – ص34.

[23] – ولي بقصر إكيس نواحي تامست – أدرار.

[24] – نازل.

[25] – وجدت.

[26] – أخذها.

[27] – الجراد.

[28] – حائط رحمونة – ص38.

[29] – حائط رحمونة – ص50.

[30] – المصدر نفسه – ص62.